الدروس التربوية والنفسية في سورة الحج

أ.د. مثنى علوان محمد الجشعمي drmothanaaljashami@gmail.com
كلية بلاد الرافدين الجامعة
أ. م. د شذى مثنى علوان shatha.mu79@gmail.com
طرائق تدريس اللغة العربية
كليه التربية للعلوم الانسانية /جامعه ديالى

الكلمات المفتاحية: سوره الحج ، الدروس التربوية
Key words: Surat Al-Hajj, educational
تاريخ استلام البحث : 2021/1/23
DOI:10.23813/FA/87/2
FA/202107/87C/352

مدخل الى البحث:

الدروس التربوية هي الهدف الاسمى الذي تسعى العملية التربوية العلمية الى الوصول اليه وتطبيقها في واقع الحياة والتقنية التي تراعي الجانب النفسي للطلبة وميولهم واتجاهاتهم وقدراتهم وان تراعي الفروق الفردية بينهم.

العملية التربوية هي عملية صياغة الانسان ويجب ان تنطلق بعد العقيدة والايمان, فالمربي لا يفلح ابداً ان لجأ الى العنف والضرب والعدوان. وتبرز الاهمية الكبرى للتربية في القدوة الصالحة اذ يتبقى للمربي ان يكون مثلاً صادقاً لتربية الاجيال.

سورة الج: سورة الحج اغلب موضوعاتها وهي سورة مدينة ومن اياتها الاذن بالقتال, التخويف من يوم الساعة, واثبات البعث وانكار الشرك بالله, ومشاهد يوم القيامة.

الدرس: درس الشيء ان قرأته قراءة جيدة وفهم معنى المقروء.

التربوية: التربية عملية صناعة الانسان تعتمد جوانب الطالب جميعها, فالتربية هي الحياة كلها لا تقتصر على الجانب المعرفي فقط بل تتناول الجانب النفسي والاجتماعي والتربوي والعلمي مع مراعاة الفروق الفردية فلا يلجأ المربي الى الضرب والعنف والتهديد والوعيد, بل ينزل الى مستوى الطالب في جوانبه كلها ليحتويه ويساعده ويبعده عن الخوف والقلق.

وسورة الحج اغلب اياتها مكية والحج يذكرنا بيوم البعث , فمنظر الحجيج في مزدلفة وهم نيام بعد وقوفهم في عرفة تظهر عليهم اثار التعب ويعلوهم التراب والغبار, فضلا عن ان الحج يذكرنا بالجهاد, لانه تدريب قاسٍ على القتال وسورة الحج تذكرنا العبودية الخالصة لله فكل شيء يدعو لله الشجر والطير والسموات والارض.

The educational and psychological lessons gained from surat Al-Hajj

Prof. Dr. Muthanna Alwan Al-Jushami
Assist.prof. Shatha Muthanna Alwan Al-jushami
Bilad Alrafidain University College, Diyala University
muthanaal@gmail.com
Ins.shathamuthana@coehuman.uodiyala.edu.iq

Abstract

Surat Al-Hajj is one of the miracles of the Holy Qur'an, in which there are verses that were revealed in Medina, others were revealed in Mecca, verses were revealed at night and others were revealed during the day, and verses were revealed in urban areas and others were revealed during travel, and they combined many things, and it is the only surah in the Qur'an that is named after one of the pillars of Islam It is the Hajj. The surah talks about many topics, including the resurrection, resurrection, resurrection, jihad and servitude to God, so what is the relationship of all these matters to each other and to Hajj? The reality is that Hajj is the act of worship that builds the ummah because of its passages that are not known to those who perform Hajj and feel all the true meanings of Hajj. -1The Hajj reminds us of the Day of Resurrection and the busyness of that day, and the people fill the parts of the earth, and all of them are heading to one place in one garment in the heat of the sun (the pilgrimage from Muzdalifah, the descent from Arafat and the direction to throw the ritual stones) and therefore the verses came at the beginning of the surah on the Day of Resurrection ((O you who believe) Fear your Lord, because the earthquake of the hour is a great thing * when you see it amazes every breastfeeding woman about what she breastfed, and every

woman gives birth to pregnancy, and you see people drunk and they are not drunk, but God's torment is severe. " (Verse 1 and 2.) How much did we wonder when reading Surat Al-Hajj, what is the connection between the Day of Resurrection and Surat Al-Hajj? And now the picture is clear and we understood what God wanted from these verses, so God did not reveal the verses except in their appropriate place with an arrangement and wisdom that only He knows, but the servant strives to investigate this meaning until he understands the purpose of the verses that he recites, so glory to the Almighty the Wise. -2The pilgrimage reminds us of the Resurrection Day. The pilgrims in Muzdalifah are seen sleeping after standing in Arafah on them with traces of fatigue and dust and dirt on them, then the morning prayer is called, so you see them rise and dust them off as if they were sent from their graves on the Day of Resurrection. -3Hajj reminds us of jihad, so the verses of Hajj came because Hajj is a cruel training in jihad, because it involves moving from one place to another, fatigue, and commitment to times and feelings that God has commanded and our noble Messenger has taught us. -4The Hajj reminds us of pure servitude to God, so everyone in Hajj invites one God in Arafah, even trees, beasts, birds, heavens and the earth. All call upon his Lord and praise him, but his praise is not spent on him ((Did you not see that God prostrates to him those in the heavens, the earth, the sun, the moon, the mountains, trees, beasts, many people, and many He is tormented, and whoever humiliates God is not honored, because God does what He pleases.)) At the end of the surah comes the verse of prostration ((O those who believe, bow down and worship your Lord and do good, so that you may prosper)). Verse 77, and there is a paradox between this prostration and the prostration in Surat Al-Alaq ((No, do not obey it, prostrate and come close)). The prostration in Surat Al-Alaq was the first verse of prostration in the Qur'an and it is specific to the Messenger alone. It is addressed to all the believers, so glory to God the Almighty, the surah began with a violent and frightening appearance, hearts trembling, and minds straying to him, this is the violent

earthquake that is between the hands of the watch, and the horror of the frail nursing mothers increases their children, the pregnant women who have aborted their pregnancies, and the people who are reeling as if they are drunk with alcohol And they have nothing of drunkenness and drink, but it is a terrifying situation that hearts shake ((O people, fear your Lord, the earthquake of the hour is a great thing.)) •From the horrors of the Hour, eviden

المقدمة:

تناول البحث في فصوله الثلاثة ما في سورة الحج من دروس تربوية ونفسية يستنبطها القارئ عند قراءة هذه السورة الكريمة بتمعن والعمل على تطبيقها في واقع الحياة, وتلك السورة ايات منها مكية وايات اخرى مدنية, اذ يجد القارئ فيها اشياء كثيرة, وهي السورة الوحيدة التي سميت باسم ركن من اركان الاسلام, وجاءت موضوعاتها مناسبة مع الحج, لان العبادة دالة واضحة على العبادة الصادقة لله سبحانه وتعالى.

وقد تضمن البحث ثلاثة مباحث, تناول المبحث الاول موضوع الحج والبعث والتعريف بالسورة القرانية الكريمة, فضلاً عن اسباب نزول هذه السورة وسبب تسميتها بسورة الحج. وتناول المبحث الثاني الدروس التربوية والنفسية التي يستنبطها القارئ عند التمعن في اثناء قراءة السورة المباركة من اهوال الساعة, العناد وجدال الكافر, الاستدلال على البعث, ومصير البائس, وطبيعة القران وخضوع المخلوقات لله فضلاً عن مشهد لعذاب الكافرين, اما المبحث الثالث الذي تناول قصة البيت الحرام وابراهيم (عليه السلام), وذم الكفار, ابراهيم (عليه السلام) وبناء البيت , الاذن بالحج وتعظيم شعائر الله, وذبح الهدي, المعركة بين الهدى والضلال.

وختم البحث بمجموعة من المصادر , فضلاً عن الهوامش التي تشير الى المصادر التي اعتمدت في كتابة البحث. والله ولي التوفيق.

ملخص البحث

الحمد لله الذي تحيرت العقول والافهام في كبرياء ذاته, وكلت الالسن والاقلام في بيداء صفاته, ودل على وحدانيته نظام مصنوعاته, تلألأت على جباه الكائنات انوار عظمته, وتهللت على صفحات الممكنات آثار قدرته, والصلاة والسلام على اشرف السفراء المقربين, وقدوة النبيين, نبي الرحمة, وامام الائمة , وسراج الامة, المنتخب من طينة الكرم, وسلالة المجد الاقدم ابي القاسم

صلى الله عليه وعلى اهل بيته مصابيح الظلم ومصادر العلم ومنابع الحكمة وعلى اصحابه الغر الميامين .

يرمي البحث الى معرفة الدروس النفسية والتربوية في سورة الحج وسورة الحج من أعاجيب سور القرآن الكريم ففيها آيات نزلت في المدينة وأُخرى نزلت في مكة, وآيات نزلت ليلاً وأخرى نزلت نهاراً, وآيات نزلت في الحضر وأخرى نزلت في السفر, وجمعت بين أشياء كثيرة, وهي السورة الوحيدة في القرآن التي سميت باسم ركن من أركان الإسلام وهو الحج, فالسورة تتحدث عن مواضيع كثيرة منها القيامة والبعث والنشور والجهاد والعبودية لله فما علاقة كل هذه الأمور ببعضها وبالحج؟ الواقع إن الحج هو العبادة التي تبني الأُمة لما فيه من عبر لا يعلمها إلى من حج وأستشعر كل معاني الحج الحقيقية .

إذ يشمل البحث المبحث الاول الذي يشير الى موضوع الحج والبعث, فالحج يذكرنا بيوم القيامة ويوم البعث والجهاد والعبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى , فالكل يدعو الهاً واحداً حتى الشجر والدواب والطير والسموات والارض ويسبحه, والمبحث الثاني يشير الى التعريف بسورة الحج, تسمية ونزول واسباب النزول, والمبحث الثالث يشير الى الدروس التربوية والنفسية والتربوية في السورة القرآنية الكريمة وكيف بدأت بمطلع عنيف مرعب, ومشهد ترتجف لهوله القلوب مبتدأ بنداء شامل للناس (يا ايها الناس) ويدعوهم الى الخوف من الله سبحانه وتعالى (اتقوا ربكم) ويخوفهم من اليوم العصيب (ان الزلزلة شيء عظيم) الى ان ينتهي الامر الى استمرار المعركة بين الهدى والضلال, والصراع قائم بين قوى الايمان وقوى الطغيان, وباذن الله قوة الايمان في النفوس وعمق الحق في القلوب هي القوى المنتصرة.

الباحثان

المبحث الاول
موضوع الحج والبعث
تمهيد:

الحج يذكرنا بيوم القيامة وبزحمة ذلك اليوم والناس يملؤون أرجاء الأرض وكلهم متجهون إلى مكانٍ واحد في لباسٍ واحد في

حر الشمس (النفرة من مزدلفة والنزول من عرفة والتوجه لرمي الجمرات) ولذا جاءت الآيات في أول السورة عن يوم القيامة ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)).(آية 1 و 2).

وكم تساءلنا عند قراءتنا لسورة الحج ما الربط بين يوم القيامة وسورة الحج ؟ والآن وضحت الصورة وفهمنا مراد الله من هذه الآيات فما أنزل الله الآيات إلا في مكانها المناسب بتدبير وحكمة لا يعلمها إلا هو ولكن العبد يجتهد في تحرّي هذا المعنى حتى يفهم هدف الآيات التي يتلوها فسبحان الحكيم القدير .

والحج يذكرنا بيوم البعث, فمنظر الحجيج في مزدلفة وهم نيام بعد وقوفهم في عرفة عليهم آثار التعب ويعلوهم التراب والغبار ثم يؤذن لصلاة الصبح فتراهم يقومون وينفضون عنهم التراب كما لو أنهم بعثوا من قبورهم يوم البعث .

والحج يذكرنا بالجهاد ولذا جاءت آيات الحج لأن الحج تدريب قاسٍ على الجهاد لما فيه من ارتحال من مكان لآخر وتعب والتزام بأوقات ومشاعر أمر بها الله وعلمنا إياها رسولنا الكريم .

والحج يذكرنا بالعبودية الخالصة لله فالكل في الحج يدعون إلهاً واحداً في عرفة حتى الشجر والدواب والطير والسموات والأرض كلٍ يدعو ربه ويسبحه لكن لا نفقه تسبيحهم ((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)) .

في ختام السورة تأتي آية السجدة ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)) . آية 77, وهناك مفارقة بين هذه السجدة والسجدة في سورة العلق ((كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب)) فالسجدة في سورة العلق كانت أول آية سجدة في القرآن وهي خاصة بالرسول وحده, أما أية السجدة في آخر

سورة الحج فهي آخر سجدة نزلت في القرآن وهي موجه للمؤمنين جميعاً, فسبحان الله العظيم, أبتدأت السورة بمطلع عنيف ومخيف, ترتجف له القلوب, وتطيش له العقول, ذلكم هو الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة, ويزيد في هوله المرضعات الذاهلات أطفالهن, والحوامل المسقطات حملهن, والناس الذين يترنحون كأنهم سُكارى من الخمر, وما بهم شيء من السُكر والشراب, ولكنه الموقف المرهب, الذي تتزلزل له القلوب ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)) .

ومن أهوال الساعة أدلة البعث والنشور, تنتقل السورة لتقيم الأدلة والبراهين على البعث بعد الفناء, ثم الانتقال لإلى دار الجزاء, لينال الإنسان جزاءه إن خيراً فخير, وإن شراً فشر .

وتحدثت السورة عن بعض مشاهد القيامة, حيث يكون الأبرار في دار النعيم, والفجار في دار الجحيم .

ثم انتقلت للحكمة من الإذن في قتال الكُفار, وتناولت الحديث عن القرى المدمرة بسبب ظلمها وطُغيانها, وذلك لبيان سُنة الله في الدعوات , وتطميناً للمسلمين بالعاقبة التي تنتظر الصابرين .

وفي ختام السورة ضربت مثلاً لعبادة المُشركين للأصنام وبينت أن هذه المعبودات أعجز وأحقر من أن تخلق ذبابة فضلاً عن أن تخلق إنساناً سميعاً بصيرا, ودعت الحاجة إلى إتباع ملة الخليل إبراهيم كهف الأيمان, وركن التوحيد .

التعريف بالسورة – سبب التسمية - أسباب النزول

تمهيد:

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (3) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (4)) .

التعريف بالسورة

هي مدنية ما عدا الآيات " 55 , 54 , 35 , 52 " فقد نزلت بين مكة والمدينة .

هذه السورة مشتركة بين مدنية ومكية كما يبدو من آياتها. وعلى الأخص آيات الإذن بالقتال, وآيات العقاب بالمثل, فهي مدنية قطعاً فالمسلمون لم يؤذن لهم في القتال والقصاص إلا بعد الهجرة أما قبل ذلك فقد قال رسول الله (ﷺ) حين بايعه أهل يثرب, وعرضوا عليه أن يميلوا على أهل مِنى من الكفار فيقتلوهم " إني لم أُومر بهذا"[1] حتى إذا صارت المدينة دار إسلام شرع الله القتال لرد أذى المشركين عن المسلمين والدفاع عن حرية العقيدة, وحرية العبادة للمؤمنين .

والذي يغلب على السورة هو موضوعات السور المكية, وجو السور المكية, فموضوعات التوحيد والتخويف من الساعة, واثبات البعث, وإنكار الشرك, ومشاهد القيامة, وآيات الله المبثوثة في صفحات الكون .. بارزة في السورة وإلى جوارها الموضوعات المدنية الإذن بالقتال, وحماية الشعائر, والوعد بنصر الله لمن يقع عليه البغي وهو يرد العدوان, والأمر بالجهاد في سبيل الله .

سبب التسمية

سُميت " سورة الحج " تخليداً لدعوة إبراهيم عليه السلام والانتهاء من بناء البيت العتيق ونادى الناس لحج بيت الله الحرام فتواضعت الجبال حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض فأسمع نداؤه في الأصلاب والأرحام أجابوا النداء " لبيك اللهم لبيك " [1]

سبب نزول السورة

عن أبي مالك في قوله " ومن الناس من يجادل في الله بغير علم " قال : نزلت في النضر بن حارث ".

(قال المفسرون : نزلت في اعراب كانوا يقدمون على رسول الله (ﷺ) المدينة مهاجرين من باديتهم وكان احدهم إذا قدم المدينة فإن صح بها ونتجت فرسه مهراً حسناً وولدت أمرأته غلاماً وكثر ماله وماشيته آمن به وأطمأن وقال ما أُصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً وإن أصابه وجع المدينة وولدت أمرأته جارية وأجهضت رماكه وذهب ماله وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان فقال والله ما اصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شراً فينقلب على دينه فانزل الله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ) .

وروى عطيةَ عن أبي سعيد الخدري قال : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده وتشاؤم بالإسلام فأتى النبي قال إن الإسلام لا يقال فقال إني لم أُصب في ديني هذا خيراً ذهب بصري ومالي وولدي فقال: يا يهودي إن الإسلام يسبك الرجال كما تسبك

(1) تفسير سورة الحج, ابو بكر الجزائري.

(1) أبو بكر جابر الجزائري , تفسير سورة الحج, سلسلة ايسر التفاسير, 2002, ص284 .

النار خبث الحديد والفضة والذهب قال : ونزلت ومن الناس من يعبد الله على حرف .

قوله تعالى ((هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ)) .

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المزكي قال : أخبرنا عبد الملك بن الحسن بن يوسف بن يعقوب القاضي قال : أخبرنا عمر بن مرزوق قال: أخبرنا شعبة عن ابي هاشم عن أبي ملجز عن قيس بن عبادة قال: سمعت أبا ذر يقول: أقسم بالله لنزلت (هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ) في هؤلاء الستة حمزة وعبيد وعلي أبن أبي طالب وعتبة وشيبة والوليد بن ربيعة رواه البخاري .

قوله تعالى (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) . قال المفسرون كان مشركوا أهل مكة يؤذون أصحاب الرسول فلا يزالون يجيئون من مضروب ومشجوج فشكوهم إلى رسول الله (ﷺ) فيقول لهم : أصبروا إني لم أُمر بالقتال حتى هاجر رسول الله (ﷺ) فأنزل الله تعالى هذه الآية: وقال أبن عباس لما أخرج رسول الله (ﷺ) من مكة قال أبو بكر رضي الله عنه : إنا لله لنهلكن فأنزل الله تعالى (أُذن للذين يقاتلون أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) الآية. قال أبو بكر: فعرفت أنه سيكون قتال .

المبحث الثاني
الدروس التربوية والنفسية في سورة الحج
من أهوال الساعة

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)..

مطلع عنيف مرعب , ومشهد ترتجف لهوله القلوب. يبدأ بالنداء الشامل للناس جميعاً: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) يدعوهم إلى الخوف من الله: (أتقوا ربكم) ويخوفهم ذلك اليوم العصيب (إن زلزلة الساعة شيءٌ عظيم) .

وهكذا يبدأ بالتهويل المجمل والتجهيل الذي يلقي ظل الهول يقصر عن تعريف التعبير, فيقال : أنه زلزلة .(وأن الزلزلة شيءٌ عظيم) من غير تحديد ولا تعريف .[1]

ثم يأخذ في التفصيل فإذا هو أشد رهبة من التهويل . إذاً هو مشهد حافل لكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت تنظر ولا ترى, وتتحرك ولا تعي, وكل حامل تسقط حملها للهول المروع الذي ينتابها .. وبالناس سكارى وما هم بسكارى, يتبدى السكر في نظراتهم الذاهلة, وفي خطواتهم المترنحة مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج تكاد العين تبصره لحظة التلاوة بينما الخيال يتملاه والهول الشاخص يذهله, فلا يكاد يبلغ اقصاه .. وهو هول حي لا يقاس بالحجم والضخامة ولكن يقاس بوقعه بالنفوس الآدمية, في المرضعات الذاهلات عما ارضعن وما تذهل المرضعة عن طفلها وفي فمه ثديها إلا الهول الذي لا يدع بقية من وعي, والحوامل الملقيات حملهن, وبالناس السكارى وما هم بسكارى, (ولكن عذاب الله شديد), أنه مطلع عنيف مرهوب تتزلزل له القلوب ..

نموذج لعناد وجدال الكافر

في ظل هذا الهول المروع يذكر أن هنالك من يتطاول فيجادل في الله, ولا يستشعر قواه: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (3) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ(4)) والجدال في الله سواء في وجوده تعالى , أم في وحدانيته, أم في قدرته, أم في علمه, أم في صفة من صفاته, الجدال في الشيء من هذا في ظل ذلك الهول الذي ينتظر الناس جميعاً من ذي عقل وقلب, لا يتقي شر ذلك الهول المزلزل المجتاح ويا ليته كان جدال عن علم ومعرفة ويقين, ولكنه جدال (بغير علم) جدال التطاول المجرد من الدليل, جدال الظلال الناشئ من أتباع الشيطان فهذا الصنف من الناس يجادل في الله بالهوى (وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ) عاتٍ مخالف للحق متبجح(كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ(4)) فهو حتم مقدور أن يظل تابعه هن الهدى والصواب, وأن يقوده إلى عذاب السعير ويتهكم التعبير فيسمي قيادته أتباعه إلى

(1) د0 محمد راتب النابلسي, سلسلة محاضرات في تفسير سورة الحج, موقع قناة أقرأ الفضائية www.iqra.com

عذاب السعير هداية! (ويهديه إلى عذب السعير) فيا لها من هداية هي الضلال المهلك المُبيد ! [1]

الاستدلال على البعث بخلق الإنسان وعدم قبول الكفار لهذا الدليل

أم إن الناس في ريب من يوم البعث؟ وفي شك من زلزلة الساعة؟ إن كانوا يشكون في إعادة الحياة فليتدبروا .

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (7) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)) كيف تنشأ الحياة , ولينظروا في أنفسهم وفي الأرض من حولهم حيث تنطق لهم الدلائل بأن الأمر مألوف ميسور ولكنهم هم الذين يمرون على الدلائل في أنفسهم وفي الأرض غافلين.

المصير البائس لمن يعبد الله على حرفٍ وثواب الصادقين :

ويمضي السياق إلى نموذج آخر من الناس, إن كان يواجه الدعوة يومذاك فهو نموذج مكرور في كل جيل, ذلك الذي يزن العقيدة بميزان الربح والخسارة, ويظنها صفقة في سوق التجارة ,

((وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ)) .

(1) سيرة ابن سيد الناس: ج160/1 .

إن العقيدة هي الركيزة الثابتة في حياة المؤمن تضطرب الدنيا من حوله فيثبت هو على هذه الركيزة ونتجاذبه والأحداث والدوافع فيتشبت هو بالصخرة التي لا تتزعزع وتتهاوى من حوله الأسناد فيستند هو إلى القاعدة التي لا تحول ولا تزول, هذه قيمة العقيدة في حياة المؤمن, ومن ثم يجب أن يستوي عليها, متمكناً منها, واثقاً بها, لا يتلجلج فيها, ولا ينتظر عليها جزاء, فهي في ذاتها جزاء, أجل هي في ذاتها جزاء على تفتح القلوب للنور, ذلك أنها الحِمى الذي يلتجأ إليه, والسند الذي يُستند عليه, هي في ذاتها جزاء يدرك المؤمن قيمته حين يرى الحيارى الشاردين من حوله, تتجاذبهم الرايح, وتتقاداهم الزوابع, ويستبد بهم القلق, بينما هو بعقيدته مطمأن القلب, ثابت القدم, هادئ البال, موصل بالله, مطمأن بهذا الاتصال [1] .

أما ذلك الصنف من الناس الذي يتحدث عنه السياق فيجعل العقيدة صفقة سوق التجارة, فأن أصابه خير أطمأن به وقال: إن الإيمان خير. فها هو ذا يجلب الخير, ويدر الضرع, ويربح التجارة, ويكفل الزواج, (وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ) .. خسر الدُنيا بالبلاء الذي أصابه فلم يصبر عليه ولم يتماسك له , ولم يرجع إلى الله فيه,وخسر الآخرة بأنقلابه على وجهه, وأنكفائه على عقيدته, وأنتكاسه عن الهدى, الذي كان مُيسراً له .

((وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (14) مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (15))) .

من طمأنينة وراحة ورضا , فهي لا تطلب جزاءها خارج ذاتها, والمؤمن يعبد ربه شكراً له على هدايته اليه, وعلى اطمأنانه للقرب منه والأُنس به, فإن كان جزاء فهو فضل من الله ومنة, استحقاقاً

(1) الدكتور إبراهيم الشربيني , تفسير سورة الحج من فتح التقدير, عشرة مجالس مع مراجعة النهائية, 2009, ص18 .

على الأيمان او العبادة, والمؤمن لا يجرب إلهه, فهو قابل على الابتداء لكل ما يقدره له, مستسلم على ابتداء لكل ما يجربه عليه راضٍ على ابتداء بكل ما ينالـه من السراء والضراء وليست هي صفقة في السوق بين البائع والرجل إنما هي إسلام المخلوق للخالق, صاحب الأمر فيه, ومصدر وجوده من الأساس, والذي ينقلب على وجهه عند مس الفتنة يخسر الخسارة التي لا شبيه فيها ولا ريب: (ذلك هو الخسران المُبين), يخسر الطمأنينة والثقة والهدوء والرضى, إلى جوار خسارة المال أو الولد, أ, الصحة, أو أعراض الحياة الأخرى التي يفتن بها الله عباده, ويبتلي بها ثقتهم فيه, وصبرهم على بلائه وإخلاصهم أنفسهم له, واستعدادهم لقبول قضائه وقدره, ويخسر الآخرة وما فيها من نعيم وقربى ورِضوان فيا له من خسران ! [1] .

طبيعة القرآن وخضوع المخلوقات لله

يمثل هذا البيان لحالات الهدى والضلال, ولنماذج الهدى والضلال, أنزل الله هذا القرآن ليهتدي به من يفتح له قلبه, فيقسم الله له الهداية: (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ).

وإرادة الله قد قررت سبق الهدى والضلال. فمن طلب الهدى تحققت إرادة الله لهدايته, وفق سنته كذلك من طلب الضلال. إنما يفرد هنا حالة الهدى بالذكر, بمناسبة ما في الآيات من بيان يقتضي الهدى في القلب المستقيم.

فأما الفرق المختلفة في الاعتقاد فأمرها إلى الله يوم القيامة, وهو العليم بكل ما في عقائدها من حق أو باطل, ومن هدى أو ضلال: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

وقد سبق تعريف هذه الفرق. وهي تذكر هنا بمناسبة إن الله يهدي من يريد, وهو أعلم بالمهتدين والضالين, وعليه حساب الجميع, والأمر إليه في النهاية, وهو على كل شئ شهيد. وإذا كان الناس بتفكيرهم ونزعاتهم وميولهم, فإن الكون كله-فيما عداهم- يتجه بفطرته إلى خالقه, يخضع لناموسه, ويسجد لوجهه[1] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ

(1) المصدر نفسه, ص 20 .
(1) تاريخ ابن الأثير:77/2.

وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ).

ويتدبر القلب هذا النص , فإذا حشد من الخلائق مما يدرك الإنسان ومما لايدرك. وإذا حشد من الأفلاك ومن الأجرام. مما يعلم الإنسان ومما لايعلم. وإذا حشد من الجبال والشجر والدواب في هذه الأرض التي يعيش عليها الإنسان .. إذا بتلك الحشود كلها في موكب خاشع تسجد كلها لله, وتتجه إليه وحده دون سواه. تتجه إليه وحده في وحدة واتساق إلا ذلك الإنسان فهو وحده الذي يتفرق : (وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ) .

فيبدو هذا الإنسان عجيبا في ذلك الموكب المتناسق. وهنا يقرران من يحق عليه العذاب فقد حق عليه الهوان: (وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ) فلا كرامة إلا بإكرام الله, ولا عزة إلا بعزة الله. وقد ذل وهان من دان لغير الديان (هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ . وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ . كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ . وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ).

الدرس السادس:مشهد لعذاب الكافرين ومشهد لنعيم المتقين.

ثم مشهد من مشاهد القيامة يتجلى فيها الإكرام والهوان, في صورة واقع يشهد كأنه معروض للعيان[1]

(هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ . وَلَهُمْ مَقَامِعُ

(1) المصدر نفسه, ص79.

مِنْ حَدِيدٍ . كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ). إنه مشهد عنيف. صاخب, حافل بالحركة, مطول بالتخييل الذي يبعثه في النفس نسق التعبير. فلا يكاد الخيال ينتهي من تتبعه في تجدده..

هذه ثياب من النار تقطع وتفصل! وهذا حميم ساخن يصب من فوق الرؤوس , يصهر به ما في البطون والجلود عند صبه على الرؤوس! وهذه سياط من حديد أحمته النار: وهذا هو العذاب يشتد, ويتجاوز الطاقة, فيهب (الذين كفروا) من الوهج والحميم والضرب الأليم يهمون بالخروج من هذا (الغم) .

وها هم أولاء يردون بعنف, ويسمعون التأنيب: (وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) ويظل الخيال يكرر هذه المشاهد من أولى حلقاتها إلى أخراها, حتى يصل إلى حلقة محاولة الخروج والرد العنيف, ليبدأ في العرض من جديد .

ولا يبارح الخيال هذا المشهد العنيف المتجدد إلا أن يلتفت إلى الجانب الآخر, الذي يستطرد السباق إلى عرضه. فأصل الموضوع أن هناك خصمين اختصموا في ربهم. فأما الذين كفروا به فقد كنا نشهد مصيرهم المفجع منذ لحظة ! وأما الذين أمنوا فهم هنالك في الجنات تجري من تحتها الأنهار. وملابسهم لم تقطع من النار. إنما فصلت من الحرير. ولهم فوقها حلي من ذهب واللؤلؤ.

وقد هداهم الله إلى الطيب من القول, وهداهم إلى صراط الحميد. فلا مشقة حتى في القول أو في الطريق .. والهداية إلى الطيب من القول , والهداية إلى صراط الحميد نعمة تذكر في مشهد النعيم. نعمة الطمأنينة واليسر والتوفيق. [1]

وتلك عاقبة الخصام في الله. فهذا فريق وذاك فريق.. فليتدبر تلك العاقبة من لا تكفيه الآيات البينات, ومن يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

المبحث الثالث

قصة البيت الحرام وإبراهيم عليه السلام وشعائر الحج

الحديث هنا عن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام. وهم الذين كانوا يواجهون الدعوة الإسلامية في مكة,

(1) الدكتور إبراهيم الشر بيني, مصدر سابق ص35.

فيصدون الناس عنها, ويواجهون الرسول ﷺ والمؤمنين فيمنعونهم من دخول المسجد الحرام. وبهذه المناسبة يتحدث عن الأساس الذي أقيم عليه ذلك المسجد يوم فوض الله إبراهيم عليه السلام في بنائه, والآذان في الناس بالحج إليه.

ولقد كلف إبراهيم أن يقيم هذا البيت على التوحيد, وان ينفي عنه الشرك, وان يجعله للناس جميعا, سواء المقيم فيه والطارئ عليه, لا يمنع عنه أحد, ولا يملكه أحد.. ويستطرد إلى بعض شعائر الحج وما ورائها من استجاشة القلوب للتقوى وذكر الله والاتصال به.. وينتهي إلى ضرورة حماية المسجد الحرام من عدوان المعتدين الذين يصدون عنه ويغيرون الأساس الذي قام عليه؛ وبوعد الله للمدافعين بالنصر متى نهضوا بالتكاليف التي تفرضها حماية العقيدة.

ذم الكفار بصدهم عن المسجد الحرام

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

وكان ذلك فعل المشركين من قريش: أن يصدوا الناس عن دين الله – وهو سبيله الواصل إليه, وهو طريقه الذي شرعه للناس, وهو نهجه الذي اختاره للعباد- وان يمنعوا المسلمين من الحج والعمرة إلى المسجد الحرام- كما فعلوا عام الحديبية – وهو الذي جعله الله للناس منطقة أمان ودار سلام, وواحة اطمئنان. يستوي فيه المقيم بمكة والطارئ عليها. فهو بيت الله الذي يتساوى فيه عباد الله, فلا يملكه أحد منهم, ولا يمتاز فيه أحد منهم:)سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ) .

ولقد كان هذا النهج الذي شرعه الله في بيته الحرام سابقا لكل محاولات البشر في إيجاد منطقة حرام. يلقى فيها السلاح. ويأمن فيها المتخاصمون., وتحقن فيها الدماء, ويجد كل احد فيها مأواه. لا تفضلا من أحد, ولكن حقا يتساوى فيه الجميع [1]

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

(وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

(1) محمد راتب النابلسي, مصدر سابق.www.iqra.com.

(وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ)

(ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ).

بظلم نذقه من عذاب اليم,.. فما بال من يريد ويفعل؟ إن التعبير يهدد ويتوعد على مجرد الإرادة زيادة في التحذير, ومبالغة في التوكيد. وذلك من دقائق التعبير. ومن دقائق التعبير كذلك أن يحذف خبر إن في الجملة(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) فلا يذرهم ما لهم؟ ما شأنهم؟ ما جزاؤهم؟ كان مجرد ذكر هذا الوصف يغني عن كل شئ آخر في شأنهم, ويقرر أمرهم ومصيرهم .

إبراهيم وبناء البيت والآذان بالحج

ثم يرجع إلى نشأت هذا البيت الحرام, الذي يستبد به المشركون, يعبدون فيه الأصنام, ويمنعون منه الموحدين بالله, المتطهرين من الشرك.. يرجع إلى نشأته على يد إبراهيم –عليه السلام- بتوجيه ربه وإرشاده. ويرجع إلى القاعدة التي أقيم عليها وهي قاعدة التوحيد. والى الغرض من إقامته وهو عبادة الله الواحد, وتخصيصه للطائفين به والقائمين لله فيه:

(وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

(وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ)

(ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)

فللتوحيد أقيم هذا البيت منذ أول لحظة. عرف الله مكانه لإبراهيم – عليه السلام- وملكه أمره ليقيمه على هذا الأساس: أَنْ (لا تُشْرِك بي) فهو بيت الله وحده دون سواه. وليطهره به من الحجيج, والقائمين فيه للصلاة (وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

فهؤلاء هم الذين أنشئ البيت لهم, لا لمن يشركون بالله, ويتوجهون بالعبادة إلى سواه.
ثم أمر الله إبراهيم عليه السلام –بأن البيت- إذا فرغ من إقامته على الأساس الذي كلف به أن يؤذن في الناس بالحج, وان يدعوهم إلى بيت الله الحرام ووعده أن يلبي الناس دعوته , فيتقاطرون الناس على البيت من كل فج , رجالا يسعون على أقدامهم, وركوبا (وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ) جهده السير فضمر من الجهد والجوع: (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) .
وما يزال وعد الله يتحقق منذ إبراهيم-عليه السلام- إلى اليوم والغد. وما تزال أفئدة من الناس تهوي إلى البيت الحرام ؛ وترف إلى رؤيته والطواف به.. الغني القادر الذي يجد الظهر يركبه ووسيلة الركوب الختلفة تنقله؛والفقير المعدم الذي لايجد إلا قدميه. وعشرات الألوف من هؤلاء يتقاطرون من فجاج الأرض البعيدة تلبية لدعوة الله التي أذن بها إبراهيم –عليه السلام- منذ آلاف الأعوام..

ويقف السياق عند بعض معالم الحج وغاياته: (1)

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)

والمنافع التي يشهدها الحجيج كثير. فالحج موسم ومؤتمر. الحج موسم تجارة وموسم عبادة. والحج مؤتمر اجتماع وتعارف, ومؤتمر تنسيق وتعاون. وهو الفريضة التي تلتقي فيها الدنيا والآخرة كما تلتقي فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة**.** أصحاب السلع والتجارة يجدون في موسم الحج سوقا رائجة, حيث تجبى إلى البلد الحرام ثمرات كل شئ..من أطراف الأرض, ويقدم الحجيج من كل فج ومن كل قط, ومعهم من خيرات بلادهم ما تفرق في أرجاء العارض في شتى المواسم.
يتجمع كله في البلد الحرام في موسم واحد. فهو موسم تجارة ومعرض نتاج؛ وسوق عالمية تقام في كل عام. وهو موسم عبادة تصفو فيه الأرواح, وهي تستشعر قربها من الله في بيته الحرام . وهي ترف حول هذا البيت وتستروح الذكريات التي تحوم عليه

(1) عمرو خالد, ومضات قرآنية,.www.amrkhalid.com.

وترف كالأطياف من قريب ومن بعيد.. طيف إبراهيم الخليل-عليه السلام- وهو يودع البيت فلذة كبده إسماعيل وأمه, ويتوجه بقلبه الخافق الواجف إلى ربه.. (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) .

وطيف هاجر وهي تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرة الملتهبة حول البيت, وهي تهرول بين الصفا والمروة وقد نهكها العطش, وهدها الجهد وأضناها الإشفاق على الطفل.. ثم ترجع في الجولة السابعة وقد حطمها اليأس لتجد النبع يتدفق بين يدي الرضيع الوضيء. وإذا هي زمزم. ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجدب. (1)

تعظيم شعائر الله وذبح الهدي في الحرم

ثم يعود السياق من تعظيم حرمات الله باتقائها والتحرج من المساس بها.. إلى تعظيم شعائر الله – وهي ذبائح الحج – باستسمانها وغلاء أثمانها (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ) (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) ويربط بين الهدى الذي ينحره الحاج وتقوى القلوب ؛ إذ أن التقوى هي الغاية من مناسك الحج وشعائره. وهذه المناسك والشعائر إن هي إلا رموز تعبيرية عن التوجه إلى رب البيت وطاعته.

وقد تحمل في طياتها ذكريات قديمة من عهد إبراهيم- عليه السلام- وما تلاه. وهي ذكريات الطاعة والإنابة والتوجه إلى الله منذ نشأة هذه الأمة المسلمة. فهي والدعاء والصلاة.سواء. وهذه الأنعام التي تتخذ هديا ينحر في نهاية أيام الإحرام يجوز لصاحبها الانتفاع بها. إن كان في حاجة إليها يركبها, أو في حاجة إلى ألبانها يشربها, حتى تبلغ محلها أي مكان حلها- وهو البيت العتيق. ثم تبحر هناك ليأكل منها. ويطعم البائس الفقير.

التوجه بمناسك الحج إلى الله وصفات المخبتين والبعد الإيماني التربوي للهدي والذبائح.

هذه الذبائح يذكر القرآن الكريم أنها شعيرة معروفة في شتى الأمم؛ إنما يوجهها الإسلام وجهتها الصحيحة حين يتوجه بها إلى الله وحده دون سواه :

(1) ا. عمرو خالد, ومضات قرآنية,.www.amrkhalid.com.

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ)

(الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

(وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ).

والإسلام يوحد المشاعر والاتجاهات , ويتوجه بها كلها إلى الله. ومن ثم يعني بتوجيه الشعور والعمل , والنشاط والعبادة, والحركة والعادة؛ إلى تلك الوجهة الواحدة. وبذلك تصطبغ الحياة كلها بصبغة العقيدة . وعلى هذا الأساس حرم من الذبائح ما أهل لغير الله به ؛ وحتم ذكر اسم الله عليها ، حتى ليجعل ذكر أسم الله هو الغرض البارز, وكأنما تذبح الذبيحة بقصد ذكر اسم الله. (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ).

ويعقب بتقرير الوحدانية (فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ). وبالأمر بالإسلام له وحدة (فَلَهُ أَسْلِمُوا). وليس هو إسلام الإجبار والاضطرار, إنما هو إسلام التسليم والاطمئنان: (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ). فبمجرد ذكر اسم الله يحرك الوجل في ضمائرهم ومشاعرهم. (الصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ). فلا اعتراض لهم على قضاء الله فيهم. (وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ) .

فهم يعبدون الله حق عبادته. (مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) فهم لا يضنون على الله بما في أيديهم.. وهكذا يربط بين العقيدة والشعائر. فهي

منبثقة من العقيدة وقائمة عليها. والشعائر تعبير عن هذه العقيدة ورمز لها.
والمهم أن تصطبغ الحياة كلها ويصطبغ نشاطها كله بتلك الصبغة، فتتوحد الطاقة ويتوحد الاتجاه، ولا تتمزق النفس الإنسانية في شتى الاتجاهات[1] . (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ).
ويجيش قلبه فيها بتقواه، ويتطلع فيها إلى وجهه ورضاه. فإذا الحياة كلها عبادة تتحقق بها إرادة الله من خلق العباد، وتصلح بها الحياة في الأرض وهي موصولة السبب بالسماء.

استمرار المعركة بين الهدى والضلال

تلك الشعائر والعبادات لا بد لها من حماية تدفع عنها الذين يصدون عن سبيل الله وتمنعهم من الاعتداء على حرية العقيدة وحرية العبادة، وعلى قداسة المعابد العاملين من تحقيق منهاج الحياة القائم على العقيدة، المتصل بالله، الكفيل بتحقيق الخير للبشرية في الدنيا والآخرة.
ومن ثم أذن الله للمسلمين بعد الهجرة بقتال المشركين ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم اعتداء المعتدين، بعد أن بلغ أقصاه، وليحققوا لأنفسهم ولغيرهم حرية العقيدة وحرية العبادة في ظل دين الله، ووعدهم النصر والتمكين، على شرط أن ينهضوا بتكاليف عقيدتهم التي بينها لهم فيما يلي من الآيات: (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ).
إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض، والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال؛ والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان. والشر جامح والباطل مسلح. وهو يبطش غير متحرج، ويضرب غير متورع؛ ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهتدوا إليه، وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له. فلا بد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش, وتقيها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسموم.

(1) محمد الأمين بن محمد المختار الجنكي الشنقيطي، حاشية التفسير، بيروت، 1976، ص268.

ولـــم يشـــأ الله أن يتـــرك الإيمـــان والخيـــر والحـــق عـــز لا تكـــافح قـــوى الطغيـــان والشـــر والباطـــل, اعتمـــادا علـــى قـــوة الإيمـــان فـــي النفـــوس وتغلغـل الحـق فـي الفطـر, وعمـق الحـق فـي القلـوب. فـالقوة الماديـة التـي يملكهـا الباطـل قـد تزلـزل القلـوب وتفـتن النفـوس وتزيـغ الفطـر. وللصـبر حـد وللاحتمـال أمـد, وللطاقـة البشـرية مـدى تنتهـي اليـه. والله أعلـم بقلـوب النـاس ونفوسـهم. ومـن ثـم لـم يشـأ أن يتـرك للمـؤمنين الفتنـة, إلا ريثمـا يسـتعدون للمقاومـة, ويتهيـأون للـدفاع, ويتمكنـون مـن وسـائل الجهاد.. وعندئذ أذن لهم في القتال لرد العدوان. (1)

المصادر:

1. ابن خليل الرحمن الهندي: *تفسير سورة الحج*, جامعة الكويت, 2001م.
2. ابن سيد الناس اليعمري : *سيرة ابن سيد الناس*: ج1.
3. ابو بكر جابر الجزائري: *تفسير سورة الحج سلسلة ايسر التفاسير*, الرياض.
4. ابو جعفر احمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الازدي الطحاوي: *بين يدي سورة الحج*, دار الاوائل للنشر, القاهرة, 2005م.
5. الامام ابو الحسن علي الواحدي النيسابوري: *اسباب النزول*, المطابع العثمانية, القاهرة, 1964م.
6. الامام الجليل عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن كثير: *تفسير ابن كثير* , مطبعة بيروت, لبنان, 1985.
7. الدكتور ابراهيم الشريني: *تفسير سورة الحج من فتح القدير*, عشرة مجالس مع المراجعة النهائية, 2009م.
8. زهير محمد شريف كحالة: *القران الكريم رؤية تربوية*, ج1, مطبعة الشرق ومكتبتها, 2000م.
9. عبدالرحمن بن ابي بكر المعروف بجلال الدين السيوطي ، *تفسير الجلالين* , المطبعة العثمانية, القاهرة, 1979م.
10. عمرو خالد: ومضات قرآنية, www.arkhalid
11. محمد الامين بن محمد المختار الجنكي الشنيقطي: *حاشية التفسير*, بيروت, 1976م.
12. محمد راتب النابلسي: *سلسلة محاضرات في تفسير سورة الحج*, موقع قناة اقرأ الفضائية, www.iqra.com

(1) عبد الرحمن بن أبي بكر المعروف بجلال الدين السيوطي, تفسير الجلالين, المطبعة العثمانية, القاهرة, 1979, ص190.